

نشأة اللغة الإنسانية عند القدامى والمحدثين : دراسة لغوية

سليمان محمد رحمة

جامعة القلم، قسم اللغات الإفريقية العربية، كشنه نيجيريا

+2348036078298

sulaimanrahma@gmail.com

ملخص البحث:

تناولت هذه المقالة البيان عن نشأة اللغة عند الإنسان وكما سيظهر أن النشأة نشأتان؛ نشأة حينما أخذ الإنسان يلفظ أصواتاً مركبة ذات مقاطع... ونشأة حينما يشرع الطفل يقلد أبويه والمحيطين به فيما يلفظونه من مفردات وعبارات، وتحدثت عن التعبير الإنساني الطبيعي عن الانفعالات، وقسمت التعبيرات إلى تعبيرات بصرية وسمعية، وتحدثت كذلك أن العلماء والمفكرين، لم يختلفوا في شيء من مسائل علم اللغة، كما اختلفوا حول موضوع نشأة اللغة. وقد تنوعت آراؤهم، واختلفت مذاهبهم، ومع ذلك لم يصلوا في بحثهم إلى نتائج يقينية، بل كان جل آرائهم يصطبغ بالصبغة الشخصية، وذكرت أهم نظريات قيلت في نشأة اللغة وهي أربعة: نظرية الإلهام والتوقيف، نظرية الاصطلاح والتواطؤ، نظرية الانفعال الغريزي ونظرية المحاكاة لأصوات الطبيعة والحيوان، ثم الخاتمة والمصادر.

Abstract

This article deals with the genesis of language in man, and it is of two types; when a person begins uttering sounds; and when the child begins to imitate his parents and those around him in terms of vocabulary and phrases that they utter. Moreover the paper discusses about the natural human expression of emotions, whereas it divides these expressions into visual and auditory expressions. And it also added that scholars' and thinkers' opinions did not differ in the science of linguistics, as it differs on the issue of the emergence of language. Their opinions varied, and yet they did not reach certain results in their research, rather, most of their opinions were on personal views. Along the line, the most important theories said about the genesis of language were mentioned. The researcher used qualitative method of research.

المقدمة:

القدامى والمحدثين، وإنها تحتوي - إنشاء الله -

على النقاط التالية:

- نشأة اللغة عند الإنسان.
- التعبير الإنساني الطبيعي عن الانفعالات.
- نظريات نشأة اللغة.
- الخاتمة.

توطئة:

اللغة ركن ثابت من أركان شخصية الإنسان، فيحق له أن يفتخر بها، وعتز بها ويجب عليه أن يزود عنها ويوليها عناية فائقة

الحمد لله الذي أنزل كتابه ليخرج الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، كما قال عز من قائل في محكم تنزيله: ﴿الرَّكَتَدُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ﴾¹ والصلاة والسلام على نبينا محمد العربي القح وعلى آله وصحبه أولي الفطنة والفراسة والذكاء وسلم تسليماً. أما بعد، فهذه مقالة حول نشأة اللغة الإنسانية عند

الفرح والحزن والألم والخوف والخجل والاشمئزاز... وما إليها، والتي تعبر عن قيام حالة وجدانية خاصة بالشخص الصادرة عنه.⁴ وقسموا هذه التعبيرات من حيث الحاسة التي ندركها عن طريقها إلى نوعين:

(1) تعبيرات بصرية: التي تصل عن طريق حاسة النظر، كالحمرة والصفرة والرعدة وانقباض الأسارير وانبساطها واتساع الحدقة وإغماض العين ووقوف شعر الرأس والعدو... وما إلى ذلك من الظواهر الجسيمة التي تصحب مختلف الانفعالات.

(2) تعبيرات سمعية: التي تصل عن طريق حاسة السمع، كالضحك والبكاء والصراخ.... وما إلى ذلك من الظواهر الصوتية الفطرية التي تصحب حالات الفرح والألم والحزن والسرور.... ويتألف هذا النوع في الغالب من أصوات مبهمة - تشبه أصوات الحيوان وأصوات مظاهر الطبيعة، وأصوات لين -حروف مد- مختلطة أحياناً ببعض أصوات ذات مقاطع -حروف ساكنة.

وبينوا أنه قد تكفلت بحوث علم النفس بدراسة هذا القسم بنوعين وشرح مظاهره، ومنشأ كل منها، والقوانين التي تشرف عليه ويخضع لها في مختلف نواحيه، ووسائل إدراكه، وفهم ما يعبر عنه...⁵

ويلاحظ أنه تشترك معظم فصائل الحيوان مع الإنسان في القسم الأول من قسمي التعبير السابق ذكرهما، وهو التعبير الطبيعي عن

ويتمثل واجبه نحوها في المحافظة على سلامتها وتخليصها مما قد يخالطها من اللحن والعجمة، وعليه أن لا ينظر إليها بوصفها مجموعة من الأصوات وجملة من الألفاظ والتراكيب؛ بل يتعين عليه أن يعتبرها كائناً حياً. فيؤمن بقوتها وغزارتها ومرونتها وقدرتها على مسايرة التقدم في شتى المجالات، كما يعدها مقوماً من أهم مقومات حياته وكيانه، وهي الحاملة لثقافته ورسالته والمكون لبنية تفكيره، والصلة بينه وبين أجياله، والصلة كذلك بينه وبين كثير من الأمم.²

يقول الدكتور على عبد الواحد وافي في كتابه علم اللغة: إن اللغة نشأتين، نشأة حينما أخذ الإنسان يلفظ أصواتاً مركبة ذات مقاطع وكلمات متميزة للتعبير عما يجول بخاطره من معان، وما يحسه من مدركات. ونشأة حينما يشرع الطفل يقلد أبويه والمحيطين به فيما يلفظونه من مفردات وعبارات؛ فتنقل إليه لغتهم عن هذا الطريق.³

بعد التأمل والتتبع والاستقراء أن علماء علم اللغة الحديث قرروا أن التعبير الإنساني الطبيعي عن الانفعالات يشمل جميع الأمور الفطرية غير المقصودة التي تصحب مختلف الانفعالات السارة والأليمة؛ كالصراخ، والضحك، والبكاء، وانقباضها، واتساع الحدقة، إغماض العينين، واحمرار الوجه واصفراره، ووقوف شعر الرأس، وارتعاد الجسم... وما إلى ذلك من الظواهر الفطرية التي تبدو بشكل غير إرادي في حالات

مذاهبهم؛ ومع ذلك لم يصلوا في بحثهم إلى نتائج يقينية؛ بل كان جل آرائهم يصطبغ بالصبغة الشخصية، ولم يتجاوز مرحلة الفرض المبني على الظن والحدس. وفي ذلك يقول ماريوباي: فيما يختص بنشأة اللغة وطبيعتها، "لدينا مصادر تعتمد على الأساطير والحديث المنقول، والمناقشات الفلسفية؛ ولكن تنقصنا الحقائق العلمية في هذا الصدد؛ ومع ذلك يوجد بعضهم، يحاول أن يعرض نظرياته في هذا الموضوع، ملبسا إياها ثوباً علمياً، ومحاولا الدفاع عنها في صلابة وإصرار. غير أن بعض المعتدلين من علماء اللغة، سخروا حتى من مجرد التفكير في إدراج هذا الموضوع، ضمن بحوث علم اللغة".⁷ وقد قررت الجمعية اللغوية في باريس، عدم مناقشة هذا الموضوع نهائياً، أو قبول أي بحث فيه لعرضه في جلساتها، كما أن كثيراً من العلماء، ذوي الشهرة الذائعة، والقدم الثابتة في علم اللغة، أمثال: "بلومفيلد" Bloomfield و"فيرث" Forth لم يتعرضوا لدراسة هذا الموضوع بشكل علمي، أو بصورة تنبئ عن أهمية البحث فيه. وقد تناوله "فيرث" باختصار جداً، على سبيل أن الكلام فيه، نوع من الفلسفة اللغوية، التي قد يكون من المفيد إمام طالب علم اللغة به.⁸

إن علم اللغة الحديث يحاول بتطوير مناهجه وبالإصرار على الدقة العلمية أن يصل إلى نتائج دقيقة. ولذلك استبعدت من البحث في اللغة تلك الموضوعات التي لا يمكن بحثها بمناهج دقيقة. وأشهر هذه الموضوعات نشأة

الانفعالات، سواء في ذلك التعبير الطبيعي البصري والتعبير الطبيعي السمعي، فانفعالات الحيوان جسميها ونفسيها، كالجوع والعطش والسرور والفرح والخوف والاطمئنان والحزن والاشمئزاز والغضب... وما إلى ذلك، يثير كل منها لدى المتلبس به طائفة خاصة من الحركات الفطرية غير المقصودة، وهذه الحركات: بعضها بصري: يصل عن طريق حاسة النظر، كاتساع الحدقة وضيقها، وبسط الأذنين وخفضهما، والتكشير عن الناب، ووقوف الشعر، وانتفاخ الجسم والأوداج، والهرب، والاختفاء، وما إلى ذلك، وبعضها سمعي؛ أي: يتمثل في صوت يصل عن طريق الأذن، كرغاء الناقة وبغامها، وصهيل الفرس، وقبعة عند نفوره من شيء، وحمحمته عند الجوع أو الاستئناس، وشحيج البغل، ونهيق الحمار، وخوار البقر، وثغاء الغنم، وزئير الأسد، وعواء الذئب وتضوره، وتلعله عند جوعه، ونباح الكلب، وضغاؤه إذا جاع، ووقوفه إذا خاف، وهريه إذا أنكر شيئاً أو كرهه، وضباح الثعلب، ومواء الهرة، وضحك القردة، وصرصرة البازي، وققععة الصقر، وهدير الحمام، وسجع القمر، وزقزقة العصفور، ونعيق الغراب، وفحيح الحيات وكشيشها وحفيفها عند تحرش بعضها ببعض إذا انسابت، ونقيق الضفدع...⁶

يقول الدكتور رمضان عبد التواب: أن العلماء والمفكرين، لم يختلفوا في شيء من مسائل علم اللغة، كما اختلفوا حول موضوع نشأة اللغة. وقد تنوعت آراؤهم، واختلفت

تتوقف، وقد لخص "أوتو يسبرسن" في كتابه "اللغة... أشهر ما سبقه من نظريات في نشأة اللغة، وأتى بنظرية من عنده. وظهرت بعد يسبرسن نظريات آخر؛ ولكن علم اللغة يرجئ تقرير الحق العلمي في نشأة اللغة إلى أن يتم جلاء ما يكتنفه من غموض، قد يكشف عنه تقدم علم الأجناس البشرية، وعلم الوراثة، وغيرهما من العلوم الإنسانية، ولو أن الأرجح أن تقدم هذه العلوم وسواها؛ لن يمكننا آخر الأمر من معرفة الظروف التي نشأت فيها اللغة معرفة يقينية.¹⁰

ويقول الدكتور علي عبد الله وافي: لا شك أن الفضل في نشأة اللغة الإنسانية يرجع إلى المجتمع نفسه، وإلى الحياة الاجتماعية؛ فلولاً اجتماع الأفراد بعضهم مع بعض، وحاجتهم إلى التعاون والتفاهم وتبادل الأفكار، والتعبير عما يجول بالخواطر من معانٍ ومدركات، ما وجدت لغة ولا تعبير إرادي. وكذلك أن اللغة ظاهرة اجتماعية تنشأ كما ينشأ غيرها من الظواهر الاجتماعية، فتخلقها طبيعة الاجتماع، وتتبعث عن الحياة الجميعة، وما تقتضيه هذه الحياة من شئون، فليست المشكلة إذن في البحث عن الأسباب التي دعت إلى نشأة اللغة، ولا في البحث عن أنشائها، وإنما المشكلة في البحث عن العوامل التي دعت إلى ظهورها في صورة أصوات مركبة ذات مقاطع متميزة الكلمات، والكشف عن الصورة الأولى التي ظهرت بها هذه الأصوات؛ أي: الأسلوب الذي سار عليه الإنسان في مبدأ الأمر في وضع أصوات معينة

اللغة، ومرجع الاهتمام القديم بهذا الموضوع إلى الدين، فقد تكونت عند الجماعات الدينية المختلفة آراء راسخة نسبياً حول نشأة اللغة الإنسانية، فاليهود يصرون على كونها هي العبرية ومسيحيو الشرق يجعلونها السريانية، وحرار المؤلفون العرب، بين جعلها العربية أو السريانية. وإذا كان المفكر العربي ابن حزم قد وجد أنه من العبث التفكير في اللغة الأولى عند الإنسان ونسبتها إلى الدين دون دليل، فإن علم اللغة الحديث لا يتناول البحث في قضية نشأة اللغة الإنسانية لعدم وجود منهج علمي لبحث ذلك.⁹

ويقول الدكتور محمود السعران: "نشأة اللغة" موضوع شائك لا سبيل إلى القطع فيه برأي، أو إلى الوصول في شأنه إلى رأي علمي، إنه بطبيعته موضوع يستحيل على الدراسة العلمية الموضوعية: وكل ما يقال فيه هو من قبيل الفروض التي لا تستند إلى أسس سليمة. فنشأة اللغة متصلة بنشأة الإنسان، أو بنشأة المجتمع الإنساني، وبالمخ الإنساني ونموه؛ وبأطوار الحياة الاجتماعية التي مر بها الإنسان، وبال حاجات والدوافع التي يحتمل أن تكون قد ألبتته إلى اصطناع هذا النظام وهو "اللغة"، إلى غير ذلك من أمور لا يزال ما نعرفه عنها من حقائق أو معلومات ضئيلاً غاية الضالة بحيث لا يمكن من تكوين رأي "علمي". ومن هنا كانت "النظريات" أو "الفروض" التي قدمها الباحثون في نشأة اللغة ضرباً من "الميتافيزيقا"؛ ولكن الأبحاث في نشأة اللغة في العصر الحديث لم

كُلَّهَا ﴿١٣﴾ " والأسماء عندهم اللغة. ¹⁴ ثم قال عبد الواحد وافي: ¹⁵ وهذا النص كما ترى، ليس صريحاً كما يدعون؛ إذ يحتمل أن يكون معناه -كما ذكر ذلك ابن جني في كتابه الخصائص، وذهب إليه كثير من أئمة المفسرين: إن الله تعالى أقدر الإنسان على وضع الألفاظ. والمؤيدون أيضاً قالوا: ذم الله تعالى قوما لأنهم أطلقوا أسماء غير توقيفية:

﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَعَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ ¹⁶ واستندوا كذلك بقول الباري عز وجل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَافُ أَسْمَائِكُمْ وَالْوَيْحُوكُمْ﴾ ¹⁷ ويقولون الألفاظ وإن كانت اصطلاحية لا احتيج قبل وضعها إلى اصطلاح آخر ليتم به التخاطب والتفاهم، وهذا يترتب دور من التسلسل الفاسد. ¹⁸ وأما القائلون بهذه النظرية من الفرنجة، فيعتمدون على ما ورد بهذا الصدد في سفر التكوين؛ إذ يقول: "والله خلق من الطين جميع حيوانات الحقول وجميع طيور السماء، ثم عرضها على آدم ليرى كيف يسميها؛ وليحمل كل منها الاسم الذي يضعه له الإنسان، فوضع آدم أسماء لجميع الحيوانات المستأنسة ولطيور السماء ودواب الحقول". وهذا النص، كما ترى، لا يدل على شيء مما يقول به أصحاب هذه النظرية، بل يكاد يكون دليلاً عليهم. ¹⁹ وقد أيد هذه النظرية الفيلسوفان الأب لامي (Lami) في كتابه "فن الكلام" Lart de parler، والفيلسوف دُونُونَالْد (De Bonald) في كتابه "التشريع

لمسميات خاصة، وتوضيح الأسباب التي وجهته إلى هذا الأسلوب دون غيره.

ثم قال: "وعلى ضوء هذه الحقائق سنناقش النظريات التي قيلت في نشأة اللغة، فنرفض كل نظرية تذهب في ذلك مذهباً لا يتفق مع هذه الحقائق المقررة، أو تغفل المشكلة الرئيسية التي نحاول حلها". هذا، وأهم ما قيل بهذا الصدد يرجع إلى أربع نظريات:

النظرية الأولى: نظرية الإلهام والتوقيف: "تقرر أن الفضل في نشأة اللغة الإنسانية يرجع إلى إلهام إلهي هبط على الإنسان فعلمه النطق بأسماء الأشياء"، قال بها الفيلسوف أفلاطون وأبو علي الفارسي، وابن حزم، وابن قدامة، وأبو الحسن الأشعري، والآمدي، وابن فارس في كتابه صاحب ومعظم رجال الدين، وذهب إلى هذا الرأي في العصور القديمة الفيلسوف اليوناني هيراكليت Heraclite، وفي العصور الوسطى بعض الباحثين في فقه اللغة العربية، وفي العصور الحديثة طائفة من العلماء على رأسها الأب لامي Lami في كتابه "فن الكلام" Lart de parler، والفيلسوف دُونُونَالْد (De Bonald) في كتابه التشريع القديم (Legislation primitive). ¹¹

ولا يكاد أصحاب هذه النظرية يقدمون بين يدي مذهبهم دليلاً عقلياً يعتد به. أما أدلتهم النقلية فبعضها يحتمل التأويل، وبعضها يكاد يكون دليلاً عليهم لا لهم... ¹²

فالمؤيدون لهذا الرأي من باحثي العرب يعتمدون على قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ

فلسنا هنا بصدد نظرية جديدة بالمناقشة؛ بل بصدد تخمين خيالي وفرض عقيم يحمل في طيه آية بطلانه، وقد ذهب المتعصبون له في تصوير منشأ اللغة مذاهب ساذجة غريبة، تدل أبغ دلاله على مبلغ انحرافه عن جادة الصواب ونطاق المعقول؛ وإليك نبذة مما يقوله بعضهم بهذا الصدد: "إن أصل اللغة لأبد فيه من المواضعة، وذلك كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعداً، فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء؛ فيضعوا لكل منها سمة ولفظاً يدل عليه ويغني عن إحضاره أمام البصر. وطريقة ذلك أن يقبلوا مثلاً على شخص، ويومئوا إليه قائلين: إنسان، إنسان، إنسان، فتصحب هذه الكلمة اسماً له، وإن أرادوا سمة عينه أو يده أو رأسه أو قدمه أشاروا إلى العضو وقالوا: يد، عين، رأس، قدم... ويسيروا على هذه الوتيرة في أسماء بقية الأشياء وفي الأفعال والحروف وفي المعاني الكلية والأمور المعنوية نفسها؛ وبذلك تنشأ اللغة العربية مثلاً، ثم يخطر بعد ذلك لجماعة منهم كلمة "مرد" بدل إنسان وكلمة "سر" بدل رأس... وهكذا فتنشأ اللغة الفارسية...²⁴

النظرية الثالثة: نظرية الغريزة، وقبول القائلون بهذه النظرية أنه تقرر أن الفضل في نشأة اللغة يرجع إلى غريزة خاصة، زود بها في الأصل جميع أفراد النوع الإنساني، وأن هذه الغريزة كانت تحمل كل فرد على التعبير عن كل مدرك حسي أو معنوي بكلمة خاصة به، كما أن غريزة "التعبير الطبيعي عن الانفعالات" تحمل الإنسان على القيام بحركات وأصوات

القديم"، وهما عالمان لغويان في العصر الحديث، قالوا: إن في اللغة من الكمال ما يعجز الإنسان عن ابتداعه، الله الذي خلق الإنسان هو الذي وهبه لغة الكلام ليعبر عن أفكاره وعلمه الأسماء كلها.²⁰

النظرية الثانية: "نظرية الاصطلاح والتواطؤ" التي تقرر أن اللغة ابتدعت واستحدثت بالتواضع والاتفاق وارتجال ألفاظها ارتجالاً، وأن حكماء المجتمع الإنساني الأول اتفقوا فيما بينهم على وضع كلمة لكل شيء يقع تحت حسهم. وذهب إلى هذا الرأي في العصور القديمة الفيلسوف اليوناني ديموقريط (Democrite) - من فلاسفة القرن الخامس ق م - وفي العصور الوسطى كثير من الباحثين في فقه اللغة العربية، وفي العصور الحديثة الفلاسفة الإنجليز آدم سميث (Adam Smith)، وريد (Reid)، ودُجالد ستيوارت (Stewart Dugald).²²

وقد ناقش الدكتور علي عبد الواحد وفي هذه النظرية بقوله: وليس لهذه النظرية أي سند عقلي أو نقلي أو تاريخي؛ بل إن ما تقرر ليعارض مع النواميس العامة التي تسيير عليها النظم الاجتماعية، فعهدنا بهذه النظم أنها لا ترتجل ارتجالاً ولا تخلق خلقاً؛ بل تتكون بالتدرج من تلقاء نفسها. هذا إلى أن التواضع على التسمية، يتوقف في كثير من مظاهره على لغة صوتية يتقاهم بها المتواضعون، فما يجعله أصحاب هذه النظرية منشأ لغة يتوقف هو نفسه على وجودها من قبل.²³

فضلاً عن تعارضه مع نفسه على وسيلة يتفاهم بها المتواضعون، وهذه الوسيلة لا يعقل أن تكون اللغة الصوتية؛ لأن المفروض أن المتواضع عليه هو أول ما نطق به الإنسان من هذه اللغة، ولا يعقل كذلك أن تكون لغة الإشارة؛ لأننا بصدد ألفاظ تدل على معانٍ كلية؛ أي: على أمور معنوية يتعذر استخدام الإشارة الحسية فيها. وفي عدم وجود تشابه بين أصواتها وما تدل عليه، برهان قاطع على أن اللغة الإنسانية لم تنشأ من محاكاة الإنسان لأصواته الطبيعية - أصوات التعبير الطبيعي عن الانفعالات - وأصوات الحيوانات والأشياء. وإذا بطل أن اللغة الإنسانية كانت نتيجة تواضع، وبطل كذلك أنها نشأت عن محاكاة لأصوات الإنسان الطبيعية وأصوات الحيوانات والأشياء، لم يبق إذن تفسير معقول لهذه الظاهرة غير التفسير السابق ذكره، وهو أن الفضل في نشأة اللغة يرجع إلى غريزة زود بها الإنسان في الأصل، للتعبير عن مدركاته بأصوات مركبة ذات مقاطع، كما زود باستعداد فطري للتعبير عن انفعالاته بحركات جسمية وأصوات بسيطة.²⁷

وهذه النظرية - على ما فيها من دقة وطرافة وعمق في البحث - فاسدة من عدة وجوه:
(1) فهي لا تحل شيئاً من المشكلة التي نحن بصدد حلها؛ بل تكتفي بأن تضع مكانها مشكلة أخرى أكثر منها غموضاً، وهي مشكلة "الغريزة الكلامية".
(2) هذا إلى أن ما تقرره يعتبر - من بعض الوجوه - من قبيل تفسير الشيء بنفسه، فكل

خاصة "انقباض الأسارير وانبساطها، وقوف شعر الرأس، الضحك، البكاء... إلخ" كلما قامت به حالات انفعالية معينة "الغضب، الخوف، الحزن، السرور... إلخ"، وأنها كانت متحدة عند جميع الأفراد في طبيعتها ووظائفها وما يصدر عنها، وأنه بفضل ذلك اتحدت المفردات، وتشابهت طرق التعبير عند الجماعات الإنسانية الأولى، فاستطاع الأفراد التفاهم فيما بينهم، وأنه بعد نشأة اللغة الإنسانية الأولى لم يستخدم الإنسان هذه الغريزة، فأخذت تنقرض شيئاً فشيئاً حتى تلاشت، كما انقرض لهذا السبب كثير من الغرائز الإنسانية القديمة.²⁵

ومن أشهر من ذهب هذا المذهب العلامة الألماني مَكْسُ مُولَّر (Max Muller)، والعلامة الفرنسي رينان (Rena). وقد اعتمد مَكْسُ مُولَّر في تأييد هذه النظرية على أدلة مستمدة من البحث في أصول الكلمات في اللغات الهندية الأوربية؛ فقد ظهر له أن مفردات هذه اللغات جميعها ترجع إلى خمسمائة أصل مشترك، وأن هذه الأصول تمثل اللغة الأولى التي انشعبت منها هذه الفصيحة؛ فهي لذلك تمثل اللغة الإنسانية في أقدم عهودها. وتبين له من تحليل هذه الأصول أنها تدل على معانٍ كلية، وأنه لا تشابه مطلقاً بين أصواتها، وما تدل عليه من فعل أو حالة.²⁶

ففي دلالتها على معانٍ كلية برهان قاطع على أن اللغة الإنسانية الأولى لم تكن نتيجة تواضع واتفاق، كما يذهب إلى ذلك أصحاب النظرية الثانية السابق ذكرها؛ لأن التواضع

أجمع علماء الأنتوجرافيا الذين قاموا بدراسة هذه الأمم بأمريكا وأستراليا وإفريقيا وغيرها، على ضعف عقليتها بهذا الصدد وعجزها عن إدراك المعاني الكلية في كثير من مظاهرها. وقد كان لهذه العقلية صدًى كبير في لغاتها، فلا نكاد نجد في كثير منها لفظ يدل على معنى كلي؛ ففي لغة الهنود الحمر مثلاً، يوجد لفظ للدلالة على شجرة البلوط الحمراء، وآخر للدلالة على شجرة البلوط السوداء... وهكذا؛ ولكن لا يوجد أيّ لفظ للدلالة على شجرة البلوط، ومن باب أولى لا يوجد أيّ لفظ للدلالة على الشجرة على العموم، وفي لغة الهُورُونِيِّين (Hurons) "من السكان الأصليين لأمريكا الشمالية" يوجد لكل حالة من حالات الفعل المتعدي لفظ خاص بها؛ ولكن لا يوجد للفعل نفسه لفظ يدل عليه، فيوجد لفظ للتعبير عن الأكل في حالة تعلقه بالخبز، ولفظ آخر للتعبير عنه في حالة تعلقه باللحم، وثالث في حالة تعلقه بالزبد، ورابع في حالة تعلقه بالموز، وهكذا، ولكن لا يوجد فعل ولا مصدر للدلالة على الأكل على العموم، أو الأكل في زمن ما. ولغة السكان الأصليين لجزيرة تَسْمَانِيَا (Tasmeni) "بقرب أَسْتِرَالِيَا" لا يوجد من بين مفرداتها لفظ يدل على الصفة، فإذا أرادوا وصف شيء لجنوا إلى تشبيهه بأخر مشتمل على الصفة المقصودة، فيقولون مثلاً "فلان كشجرة كذا" إذا أرادوا وصفه بالطول؛ ولذلك يرى المحدثون من علماء اللغة أن الأصول

ما تقوله يمكن تلخيصه في العبارة الآتية: "إن الإنسان قد لفظ أصواتاً مركبة ذات مقاطع ودلالات مقصودة؛ لأنه كانت لديه قدرة على لفظ هذا النوع من الأصوات". وهذا، كما لا يخفى، مجرد تقرير للمشكلة نفسها في صيغة أخرى.

(3) على أن قدرة الإنسان الفطرية أو المكتسبة على لفظ هذا النوع من الأصوات ليست موضوع البحث؛ لأنه من المقرر أن الإنسان مزود بأعضاء نطق تسمح له بلفظ هذا النوع من الأصوات؛ بل إن هذا مشترك بين الإنسان وبعض الطيور - كما تقدمت الإشارة إلى ذلك، وإنما الذي يهمنا هو الوقوف على أول مظهر لاستغلال هذه القدرة والانتفاع بها في تكوين الكلام الإنساني؛ أي: البحث عن الأسلوب الذي سار عليه الإنسان في مبدأ الأمر في وضع أصوات معينة لمسميات خاصة، والكشف عن العوامل التي وجهته إلى هذا الأسلوب دون غيره.

(4) ولكن أكبر خطأ وقعت فيه هذه النظرية هو ذهابها إلى أن الأصول الخمسمائة - السابق ذكرها - تمثل اللغة الإنسانية الأولى، فهذه الأصول - كما تقدم - تدل على معانٍ كلية، ومن الواضح أن إدراك المعاني الكلية يتوقف على درجة عقلية راقية، لا يتصور وجود مثلها في فاتحة النشأة الإنسانية، وها هي ذي الأمم البدائية التي تُعدُّ أصدق ممثل للإنسانية الأولى تؤيد ما نقول؛ فقد

في كتابه الخصائص في أسلوب يدل على قدمه
وكثرة القائلين به من قبله.³⁰

وقال الدكتور رمضان عبد التواب في هذا
الصدد: "وقد عرض لهذا الرأي من علماء
المسلمين ابن جني، فقال: "وذهب بعضهم إلى
أن أصل اللغات كلها، إنما هو من أصوات
المسموعات، كدوي الريح، وحنين الرعد، وخزير
الماء، وشحيج الحمار، ونغيق الغراب، وصهيل
الفرس... ونحو ذلك. ثم ولدت اللغات عن ذلك
فيما بعد". وقد ارتضى ابن جني هذا الرأي فقال
معقبا عليه: "وهذا عندي وجه صالح ومذهب
متقبل". المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث
اللغوي"³¹

فبحسب هذه النظرية يكون الإنسان قد افتتح
هذه السبيل بمحاكاة أصواته الطبيعية التي تعبر
عن الانفعالات؛ كأصوات الفرح والحزن والرعب
وما إليها، ومحاكاة أصوات الحيوان ومظاهر
الطبيعة والأشياء؛ كدوي الريح وحنين الرعد،
وخزير الماء، وحفيف الشجر، وجعجة الرحي،
وقعقة الشنان، وصرير الباب، وصوت القطع
والضرب... وكان يقصد من هذه المحاكاة
التعبير عن الشيء الذي يصدر عنه الصوت
المحاكى ما زود به من قدرة على لفظ أصوات
مركبة ذات مقاطع، وكانت لغته في مبدأ أمرها
محدودة الألفاظ، قليلة التنوع، قريبة الشبه
بالأصوات الطبيعية التي أخذت عنها، قاصرة
عن الدلالة على المقصود؛ ولذلك كان لا بد لها
من ساعد يصحبها؛ فيوضح مدلولاتها، ويعين
على إدراك ما ترمي إليه، وقد وجد الإنسان خير

الخمسائة لا تمثل في شيء اللغة الإنسانية
الأولى كما يذهب إلى ذلك مكس مؤلز،
بل إنها بقايا لغة حديث قطعت شوطاً كبيراً
في سبيل الرقي والكمال، ولم تصل إليها
الأمم الإنسانية إلا بعد أن ارتقت عقلياتها
ونهض تفكيرها، ويذهب بعضهم إلى أبعد
من هذا، فيقرر أنها مجرد أصول نظرية،
وأنها لم تكن يوماً ما موضوع لغة
إنسانية.²⁸

(5) النظرية الرابعة: "نظرية المحاكاة لأصوات
الطبيعة والحيوان" يقول علماء علم اللغة
العربية المحدثون: إن هذه النظرية تقرر أن
اللغة الإنسانية الأولى نشأت من الأصوات
الطبيعية المسموعة، كدوي الريح وحنين
الرعد وخزير الماء وشحيج الحمار ونغيق
الغراب وصهيل الفرس وأصوات الحيوانات
والطيور والتعبير الطبيعي للانفعالات وكسر
جسم ونحو ذلك. ثم ولدت اللغات عن ذلك
فيما بعد وسارت في سبيل الرقي شيئاً
فشيئاً مع الحضارة، وتعدد حاجات الإنسان،
وكلما اتسعت حاجات الإنسان اتسعت لغته
لتجيب على الحاجة الضرورية القصوى.²⁹
وقد ذهب إلى هذا الرأي معظم المحدثين من
علماء اللغة، وعلى رأسهم العلامة وِيتي
(Whitey)، وذهب إلى مثله من قبل هؤلاء كثير
من فلاسفة العصور القديمة، ومن مؤلفي العرب
بالعصور الوسطى؛ فقد تحدث عنه ابن جني
المتوفى عام 392هـ؛ أي: من نحو ألف سنة،

الارتقاء اللغوي عند الطفل؛ فقد ثبت أن الطفل في المرحلة السابقة لمرحلة الكلام، يلجأ في تعبيره الإرادي إلى محاكاة الأصوات الطبيعية "أصوات التعبير الطبيعي عن الانفعالات، أصوات الحيوان، أصوات مظاهر الطبيعة والأشياء.. فيحاكي الصوت قاصداً التعبير عن مصدره، أو عن أمر يتصل به، وثبت كذلك أنه في هذه المرحلة وفي مبدأ مرحلة الكلام يعتمد اعتماداً جوهرياً في توضيح تعبيره الصوتي على الإشارات اليدوية والجسمية، ومن المقرر أن المراحل التي يجتازها الطفل في مظهر ما من مظاهر حياته تمثل المراحل التي اجتازها النوع الإنساني في هذا المظهر.³⁴

الخاتمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبتوفيقه وإعانتة يحصل المرء على مقصوده. قد تحدث البحث عن نشأة اللغة عند الإنسان عموماً، وذكر التعبير الإنساني الطبيعي، وساغ نظريات الفلاسفة والمفكرين في نشأة اللغة عند الطفل، ثم الخاتمة.

وتوصل البحث إلي هذه النتائج؛ فقد اكتشف الباحث عن التعبير الإنساني الطبيعي عن الانفعالات يشمل جميع الأمور الفطرية غير المقصودة التي تصحب مختلف الانفعالات السارة والأليمة؛ كالصراخ، والضحك، والبكاء. وأن تعبيرات الإنسان يشمل بصرية وما ينطوي تحتها وسمعية من الظواهر الجسمية التي تصحب مختلف الانفعالات. وأن معظم فصول

مساعد لها في الإشارات اليدوية والحركات الفطرية التي تصحب الانفعالات، فكان في مبدأ أمره مجرد محاكاة إرادية لهذه الحركات، ثم توسع الإنسان في استخدامه؛ فحاكى به أشكال الأشياء وحجومها وصفاتها، وما إلى ذلك، فازدادت أهميته في الحديث، وسد فراغاً كبيراً في اللغة الصوتية، ثم أخذت هذه اللغة يتسع نطاقها تبعاً لارتقاء التفكير، واتساع حاجات الإنسان ومظاهر حضارته، وتستغني شيئاً فشيئاً عن مساعدة الإشارات، وتبعد عن أصولها تأثير عوامل كثيرة؛ كالتطورات الطبيعية التي تعنور الصوت وأعضاء النطق الإنساني، وكعلاقات المجاورة والمشابهة التي تعنور الدلالات.³²

وهذه النظرية هي أدنى نظريات هذا البحث إلى الصحة، وأقربها إلى المعقول، وأكثرها اتقافاً مع طبيعة الأمور وسنن النشوء والارتقاء الخاضعة لها الكائنات وظواهر الطبيعة الاجتماعية، وهي إلى هذا وذلك تفسر المشكلة التي نحن بصددنا، وهي الأسلوب الذي سار عليه الإنسان في مبدأ الأمر في وضع أصوات معينة لمسميات خاصة، والعوامل التي وجهته إلى هذا الأسلوب دون غيره، ولم يقد أي دليل يقيني على خطئها، ولكن لم يقد كذلك أي دليل يقيني على صحتها، وكل ما يذكر لتأييدها لا يقطع بصحتها، وإنما يقرب صورها ويرجح الأخذ بها.³³

وبين الدكتور على عبد الواحد وافي أن من أهم أدلتها أن المراحل التي تقرر بها بصدد اللغة الإنسانية تتفق في كثير من وجوهها مع مراحل

- الحيوان تشترك مع الإنسان في التعبير، وهو التعبير الطبيعي عن الانفعالات، كالجوع والعطش والسرور والفرح والخوف والاطمئنان والحزن والاشمئزاز والغضب... وما إلى ذلك. أن العلماء والمفكرين، لم يختلفوا في مسائل علم اللغة، وإنما اختلفوا في موضوع نشأة اللغة. وتتنوع آراؤهم، واختلفت مذاهبهم.
- الهوامش:**
- (1) إبراهيم: ١
- (2) سالم مبارك الفلق (الأستاذ)، اللغة العربية التحديات والمواجهة، ص: 1 بتصرف من الباحث
- (3) وافي، علي عبد الواحد: علم اللغة، الطبعة الأولى، الناشر، نهضة مصر للطباعة والنشر، ص 80.
- (4) المرجع نفسه ص: 81
- (5) المرجع السابق، ص: 82
- (6) المرجع السابق، ص: 87
- (7) عبد التواب، رمضان: المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، الطبعة الثالثة، 1417 هـ / 1997 م، الناشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة، ص: 109.
- (8) المرجع نفسه، ص: 109.
- (9) حجازي، محمود فهمي (الدكتور): علم اللغة العربية، الناشر، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ص: 46.
- (10) السعران، محمود: علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، الطبعة الثانية، القاهرة
- 1997م، الناشر: دار الفكر العربي، ص: 49.
- (11) علي عبد الواحد وافي، المرجع السابق، ص: 96.
- (12) المرجع السابق، ص: 97.
- (13) البقرة: ٣١
- (14) رمضان عبد التواب، المرجع السابق، ص: 44.
- (15) علي عبد الوافي، علم اللغة، ص 98.
- (16) النجم: 23.
- (17) الروم: 22.
- (18) رمضان عبد التواب، المرجع السابق، ص 44.
- (19) وافي، علي عبد الواحد، المرجع السابق، ص. 98.
- (20) بدرابي، زهران (الدكتور): من قضايا متون اللغة، الطبعة الرابعة، 1999م، ص: 67.
- (21) رمضان عبد التواب، المرجع السابق، ص: 45.
- (22) علي عبد الواحد وافي، المرجع السابق، ص: 98.
- (23) المرجع السابق، ص: 99.
- (24) المرجع نفسه، ص: 99.
- (25) المرجع نفسه، ص: 100.
- (26) المرجع نفسه والصفحة نفسها.
- (27) المرجع نفسه، ص: 101.
- (28) على عبد الواحد وافي، المرجع السابق، ص: 101



- (29) المدخل إلى اللغة العربية، ص:46.
(30) علم اللغة علي عبد الواحد وافي، المرجع السابق، ص:104.
(31) رمضان عبد التواب، المرجع السابق، ص:112.
(32) المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(33) علم اللغة علي عبد الواحد وافي ص:105.
(34) المرجع السابق، ص:105.